مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية ثقافية تصدر سنوياً

العدد الثانى

1985

- من قضايا الفكر والعقيدة
- مذاهب بلا إسلام
- معارف إسلامية
- مخطوطات ليبية
- دور الفكر الواقعى فى النهضة الإسلامية

خليج أمير المؤمنين

• الدكتور زهير القريب •

خليج امير المؤمنين يمثل شريانا مائيا قديما يمتد ما بين اقليم بحيرات التمساح ورأس دلتا النيل مخترقا وادى الطميلات ، وهذا الامتداد الجغرافى ظل معروفا منذ فجر التاريخ حتى الوقت الحاضر تحت اسماء مختلفة وقد تذبذب الوضع المائى فيه بين امتداد لمجموعة من المستنقعات فى عهود ضعف مصر الى شريان مائى يجرى باستمرار فى عهود القوة مبتدئا من عصر عمرو بن العاص.

كانت افرع النيل فى تغير مستمر منذ ظهرت الدلتا وكان عددها فى اواخر عهد الاسرات المصرية اكثر من سبعة اختفى معظمها ولم يبق الا اثنان ، ويختلف الكتاب القدماء فيما بينهم على مواقعها واسمائها واهميتها . وسنتعرض فيما يلى لآراء بعض هؤلاء الكتاب .

اقدم **المعلومات** عن افرع النيل ذكرها هيرودوت فى كتابة المسمى «تاريخ هيرودوت» وقد زار هيرودوت مصر حوالى سنة ٤٥٠ ق . م وكتب عن مصر والنيل «١»

ومما قاله عن افرع النيل ان النهر يبدأ فى التفرع قرب بلدة الوراق الحالية شمال غرب القاهرة حيث يتفرع الى ثلاثة افرع رئيسية ، الفرع الشرقى ويسمى الفرع البلوزى ويصب قرب الغرما ، والفرع الغربى ويسمى الفرع الكانوبى ويصب فى خليج ابى قير ، وفى وسط الدلتا يجرى الفرع الرئيسى الثالث المسمى بالسبنيتى ويصب قرب بلدة البرج فى منطقة البرلس ، ويتفرع من الفرع السبنيتى «فى المسافة بين سمنود وميت غمر» ثلاثة افرع تتجه نحو الشمال الشرقى هى الفرع السايسى ويصب قرب فتحة الجميل غربى بور سعيد والفرع المنديسى ويصب عند حلق الوحل الى الجنوب الشرقى من رأس البربما يقرب من ١٣ كم ثم الفرع الباكولى ولم يكن فرعا طبيعيا كما زعم هيرودوت وانما كان محفورا ويتفق مع الجزء الشمالى من فرع دمياط ، ومن الفرع الكانوبى كان يتفرع جهة الشرق فرع طبيعى آخر سماه هيرودوت الفرع البولبينى يبدأ الى الجنوب قليلا من دمنهور ثم يتجه نحو الشرق ثم الى الشمال متخذا نفس المجرى الذى يجرى فيه الان فرع رشيد «١»

ولكن اذا قارنا الافرع التى ذكرها هيرودوت بأفرع النيل الحالية نجد ان اول ما يلفت النظر اختفاء معظم الافرع القديمة .

وفى القرن الثانى الميلادى اشار بطليموس الجغرافى فى كتابه المسمى «الجغرافية» الى افرع النيل ولكنه سماها باسماء جديدة ويلاحظ ان ثلاثة من الافرع التى ذكرها بطليموس تتفق فى اتجاهاتها مع ثلاثة من الافرع التى ذكرها هيرودوت «٢»

ولا يفوتنا ان نشير هنا الى القناة التى ربطت البحر الاحمر بالنيل عن طريق وادى طميلات وبحيرات التمساح والمرة التى كانت متصلة بخليج السويس خلال فترة طويلة من التاريخ فهذه كانت ايضا منفذا من منافذ مصر الى البحر الاحمر ، وقد حفرت هذه القناة عدة مرات ولكنها سرعان ما كانت تترك لتردمها الرمال ، والرأى الراجح ان هذه القناة كانت تأخذ من احد فروع النيل القديمة ثم اتجهت نحو الشرق فى وادى طميلات حتى مدينة بيثوم التى كانت تقع على مسافة ٣٦ كم الى الغرب من مدينة الاسماعلية الحالية وعلى بعد ٥٥ كم شمالى خليج السويس .

غير ان منافسة هذه القناة للطرق التى كانت تعبر الصحراء الشرقية الى ثنية قنا لم تكن الا لفترة قصيرة من التاريخ وبعدها تترك القناة لتردمها الرمال ويملأها طمى النيل ، ولكن لماذا كانت القناة تهمل وتترك للرمال ؟ السبب هو صعوبة الملاحة وخطورتها فى خليج السويس والجزء الشمالى من البحر الاحمر ، فهنا تشتد الرياح الشمالية الغربية التى تمنع من استخدام الشراع وتحتم استخدام المجداف للوصول الى الشاطىء ، كما انها تدفع امامها تيارات بحرية قوية ليس هذا فحسب بل ان سواحل خليج السويس تحفها شطوط مرجانية غاطسة الاعماق قليلة وممتدة فى الماء لمسافة كبيرة تعرض السفن الى التحطيم والهلاك اذا ارتطمت بها ، كما ان مستوى المياه فى الخليج ينخفض بحوالى ثلاثة اقدام وقت هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية على البحر العربى مما يؤثر على مستوى المياه فى شمال البحر الاحمر ، وبالتالى يزيد من شدة التيارات فى الخليج ، لكل هذه الصعوبات فان منتجات بلاد بونت والشرق الاقصى كانت خلال العصور المختلفة تنقل فى الغالب الى احد الموانىء الجنوبية على ساحل البحر مثل القصير او موبس هورمس او برنيس او عيذاب ومنها تنقل بالدواب الى احدى المدن على ثنية قنا قد تكون قفط او قنا او قوص ومن ثم تنقل بالقوارب النهرية الى الاسكندرية «١»

تاريخ الخليج قبل الفتح الاسلامى :ـ

يقال ان اول من فكر فى حفر ترعة من النيل الى البحر الاحمر هو نيخاؤ بن (١) تباه مستيك فابتدأ فى حفر هذه الترعة من قرب الزقازيق من فرع بلوسيوم ، ثم عدل عن حفرها بأمر الكهنة وذلك فى سنة ٦١٠ ق . م ، ثم اراد دارا الاول ملك الفرس اتمام الترعة سنة ٥٢٠ ق . م ولكنه توقف لما قيل له : ان منسوب البحر الاحمر اعلى من سطح الارض المصرية ثم بطليموس ، ثم حفر الخليج تراجانيوس ولم يتمه فجاء ادريان فمده الى النيل

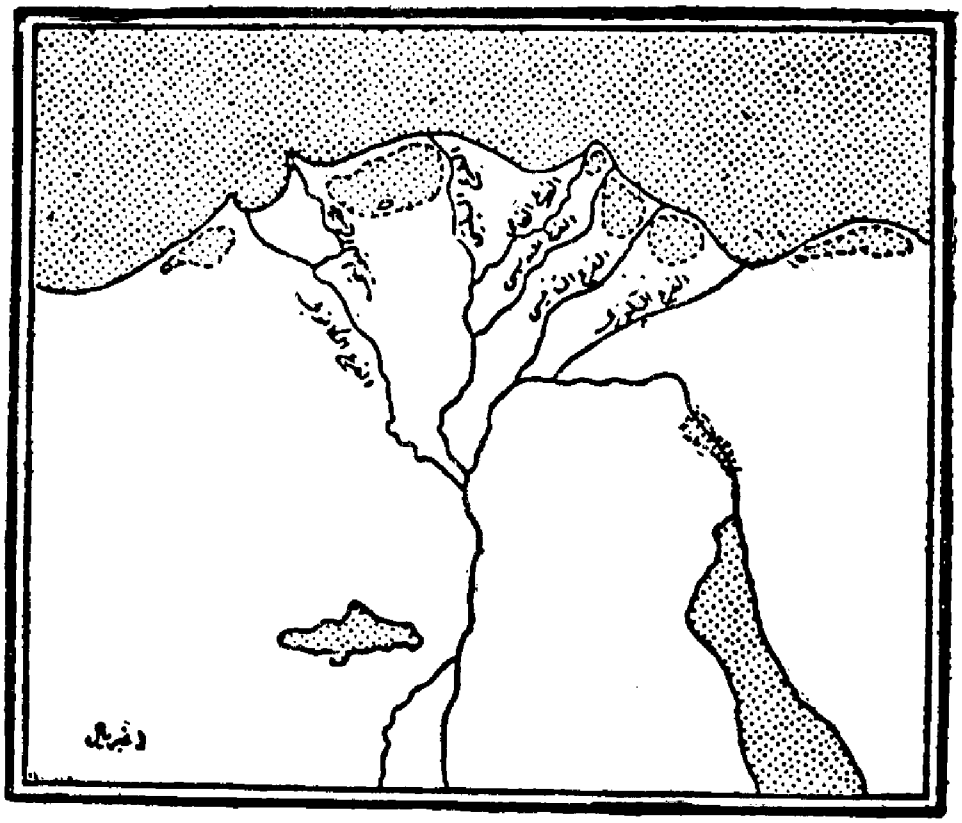

الفروع السبعة للدلتا " كما ذكرها اسطرابون "

وكان يمر ببلبيس ، واوصله بخليج نيخاؤبن تباه مستيك الذى كمله دارا ملك الفرس ، واجتمع من الخليجين خليج واحد كان ينتهى الى مستنقع المالح .

وفى زمن بطليموس لاغاوس حفرت ترعة من نهايته لتوصيل المياه الحلوة الى مدينة ارستوبة فى المحل الذى فيه الان مدينة السويس ، ويعلم من هذا ان خليج تراجان وادريان هما بجملتهما خليج واحد وهو خليج امير المؤمنين الممتد فى الصحراء ، وكان اوله بقرب عين شمس ويتبع فى سيره اكثر المواضع التى تشغلها الترعة الحلوة الموصلة الى السويس كما يدل على ذلك ما وجد من الآثار عند حفرها وحفر ترعة الاسماعلية الى ان يصل الترعة التى حفرها بطليموس . وقد تعرض المقريزى فى خططه لموضع هذا الخليج وذكر رواية فى سبب حفره فقال : ان هذا الخليج يقع بظاهر فسطاط مصر ويمر من الجانب الغربى للقاهرة : فيما بينها وبين المقس وعرف فى اول الاسلام بخليج امير المؤمنين وهو خليج قديم اول من حفره طوطيس بن ماليا احد ملوك مصر القدماء الذين سكنوا مدينة منف وهو الذى وفد عليه خليل الرحمن ابراهيم عليه السلام وأَخْدَمَهَا امرأته سارة واخذ هاجر ام اسماعيل ، وعندما اسكنها ابراهيم هى وابنها اسماعيل فى مكة بعثت الى طوطيس تعلمه انها بمكان قفر وتستغيث به ، فأمر بحفر هذا الخليج وبعث اليها فيه بالسفن محملة بالحنطة والاقوات الى جدة فأحيا بلد الحجاز ثم جدد حفرة اندريانوس «ادريان» قيصر احد ملوك الروم وسارت فيه السفن قبل الهجرة بنيف واربعمائة سنة وبقى رسمه عند الفتح الاسلامى فحفره عمرو بن العاص «١»

وقد استبعد بعض المؤرخين المحدثين قصة حفر هذا الخليج من اجل استغاثة خادمة طوطيس بن ماليا «٢»

سبب حفر عمرو للخليج :ـ

روى فى سبب حفر عمرو بن العاص لهذا الخليج عدة روايات : فقيل : ان الناس بالمدينة اصابهم جهد شديد فى خلافة عمر بن الخطاب «رضى الله عنه» فى عام الرمادة فكتب عمر الى عمرو بن العاص :

من عبدالله امير المؤمنين الى عمرو بن العاص سلام :

اما بعد : فلعمرى يا عمرو ما تبالى اذا شبعت انت ومن معك ان اهلك انا ومن معى فياغوثاه ثم يا غوثاه .

فكتب اليه عمرو بن العاص :

لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص ، اما بعد فيا لبيك ثم يا لبيك قد بعثت اليك بعيرا اولها عندك وآخرها عندى والسلام عليك ورحمة الله .

فبعث عمرو الى المدينة قافلة عظيمة كان آخرها بمصر واولها بالمدينة يتبع بعضها بعضا ، فلما قدمت على عمر وَسَّعَ بها على الناس فدفع الى كل بيت فى المدينة وما حولها بعيرا بما عليه من الطعام .

فلما رأى ذلك عمر «رضى الله عنه» حمد الله وكتب الى عمرو ان يقدم عليه هو وجماعة من اهل مصر فقدموا عليه فقال عمر «رضى الله عنه» يا عمرو ان الله قد فتح على المسلمين مصر وهى كثيرة الخير والطعام وقد القى فى روعى لما احببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتح الله عليهم مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين .. ان احفر خليجا من نيلها حتى يسيل فى البحر فهو اسهل لما نريد من حمل الطعام الى المدينة ومكة فان حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ فيه ما نريد فانطلق انت واصحابك فتشاوروا فى ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم .

فانطلق عمرو فاخبر من كان معه من اهل مصر فثقل ذلك عليهم وقالوا : نتخوف ان يدخل من هذا ضرر على مصر فنرى ان يعظم ذلك على امير المؤمنين وتقول ان هذا امر لا يعتدل ولا يكون ولانجد له سبيلاً .

فرجع عمرو الى عمر (رضى الله عنه) فضحك عمر حين رآه وقال : والذى نفسى بيده كأنى انظر اليك ياعمرو والى اصحابك حين اخبرتهم بما امرنا به من حفر الخليج فثقل ذلك عليهم ، ثم ذكر عمر (رضى الله عنه) مقالتهم فتعجب عمرو من قول عمر (رضى الله عنه) وقال : صدقت والله ياأمير المؤمنين لقد كان الامر على ماذكرت ، فقال عمر (رضى الله عنه) : انطلق ياعمرو بعزيمة منى حتى تجد فى ذلك ولايأتى عليك الحول حتى تفرغ منه ان شاء الله .

وقيل ان عمر (رضى الله عنه) قال لعمرو بن العاص : ان العرب قد تشاءمت بى وكادت ان تهلك على رجلى وقد عرفت الذى اصابها وليس جند من الاجناد ارجى عندى ان يغيث الله بهم اهل الحجاز من جندك فان استطعت ان تحتال لهم حيلة حتى يغيثهم الله .

فقال عمرو : ماشئت ياأمير المؤمنين ، قد عرفت انه كانت تأتينا سفن فيها تجار من اهل مصر قبل الاسلام فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج الذى كانت تأتى منه السفن واستد وتركته التجار ، فان شئت ان تحفره فتنشىء فيه سفنا تحمل الطعام الى الحجاز فعلت ، فقال له عمر (رضى الله عنه): نعم فافعل .

فلما خرج عمرو من عند امير المؤمنين وذلل لرؤساء القبط فثقل الامر عليهم ، الا ان عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) كان شديد الحرص على شق ذلك الخليج فلاتنسين حفره فقال له : ياامير المؤمنين انه قد انسد وتدخل فيه نفقات عظام .

فقال له : اما والذى نفسى بيده وانى لاظنك حين خرجت من عندى حدثت بذلك اهل ارضك فعظموه عليك وكرهوا ذلك ، اعزم عليك الا ماحفرته وجعلت فيه سفنا ، فقال عمرو : ياأمير المؤمنين انه متى يجد اهل الحجاز طعام مصر وخصبها مع صحة الحجاز لا يخفوا الى الجهاد ، قال فانى ساجعل من ذلك امرا لايحمل فى هذا البحر الازرق أهل المدينة واهل مكة فحفره عمرو وعالجه وجعل فيه السفن ،

وفى رواية ثالثة : ان الذى دل عمرو بن العاص على الخليج رجل من القبط فقال لعمرو : ارأيت ان دللتك على مكان تجرى فيه السفن حتى تنتهى الى مكة والمدينة اتضع

بحيرة المرة

عنى الجزية وعن أهل بيتى ؟ قال نعم : فكتب بذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب اليه : أن افعل .

واذا تأملنا النظر فى هذه الروايات الثلاث نجد ان الرواية الاولى تشير الى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه) هو الذى فكر فى حفر الخليج رحمة بأهل الحرمين ، ويؤخذ من الرواية الثانية ان عمرو بن العاص هو الذى فكر فى حفره لانه كان يعلم بالخليج القديم الذى كان يصل النيل بالبحر الاحمر ، ويؤخذ من الرواية الثالثة ان احد الاقباط هو الذى دل عمراً على موضع الخليج ،

وللجمع بين هذه الروايات نقول : لامانع ان يكون احد الاقباط هو الذى دل عمراً على موضع الخليج وان عمرو بن العاص استشار الخليفة عمر بن الحطاب فى حفره فوافق على ذلك ولكن اقباط مصر ثقل عليهم هذا الامر الا أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) اصر على حفره لما فيه خير للقطرين ، اذ يذكر بعض المؤرخين (١) انه عندما اخذت السفن النيلية ترسو فى مينائى ينبع وجدة حاملة غلال مصر هبطت اسعار القمح فى اسواق مكة والمدينة حتى كادت تساوى اسعارها فى اسواق مصر ، كما ان مصر (٢) كانت اكثر استفادة من حفر هذا الخليج اذا أعاد طريقا ايسر من طريق القوافل التجارية مع الهند وبلاد الشرق الاقصى كما اتاح لها ان تستعيد حظا من مكانتها التجارية العظيمة التى كانت لها فى سالف عزها وسؤددها .

على انه لو لم يكن لحفره استفادة لمصر لما قام بحفره حكام مصر القدماء طلبا لعمارة الارض وخصب البلاد وعيش الناس بالاقوات ، وان يحمل الى كل بلد ماليس فيه من الاقوات وغيرها من ضروب المنافع وضروب المرافق(٣)

وقد استفاد الاقباط من الفتح الاسلامى اذ منحوا الحرية فى الحركة التجارية بعد ان كانت فى عهد الروم موقوفة على اليهود وعلى الروم انفسهم تحميهم جنود الدولة ، ففتح لهم المسلمون باب المساواة مع غيرهم وقد تفوقوا على غيرهم فى هذا المجال (٤) . لاطمئنان المسلمين للقبط وقد تميز موقف القبط انفسهم بالاعتدال وقويت تجارتهم بسبب اتاحة الفرص والمسالك لهم .

حفر عمرو بن العاص للخليج :-

ذكرنا آنفا ان الخليج قديم العهد وقد اهمل امره الى زمن الفتح الاسلامى فلما فتح عمرو بن العاص مصر كان النيل قد تحول عن مدينة عين شمس وتغير مجراه الى الغرب فابتدأ فى حفر الخليج وزاد فيه حتى جعله صالحا للملاحة ولايبعد انه جعل فمه (١) قريبا من الفسطاط وذلك فى سنة ٢٣ هـ (٢) فسار به من ظاهر الفسطاط حتى موضع القاهرة اليوم ومن هناك الى المطرية ومنها الى قرب الزقازيق حيث كانت تبتدىء الترعة القديمة ومن هناك فى مجرى الترعة القديمة الى البحر الاحمر وسماه خليج امير المؤمنين كما وضحنا سابقا .

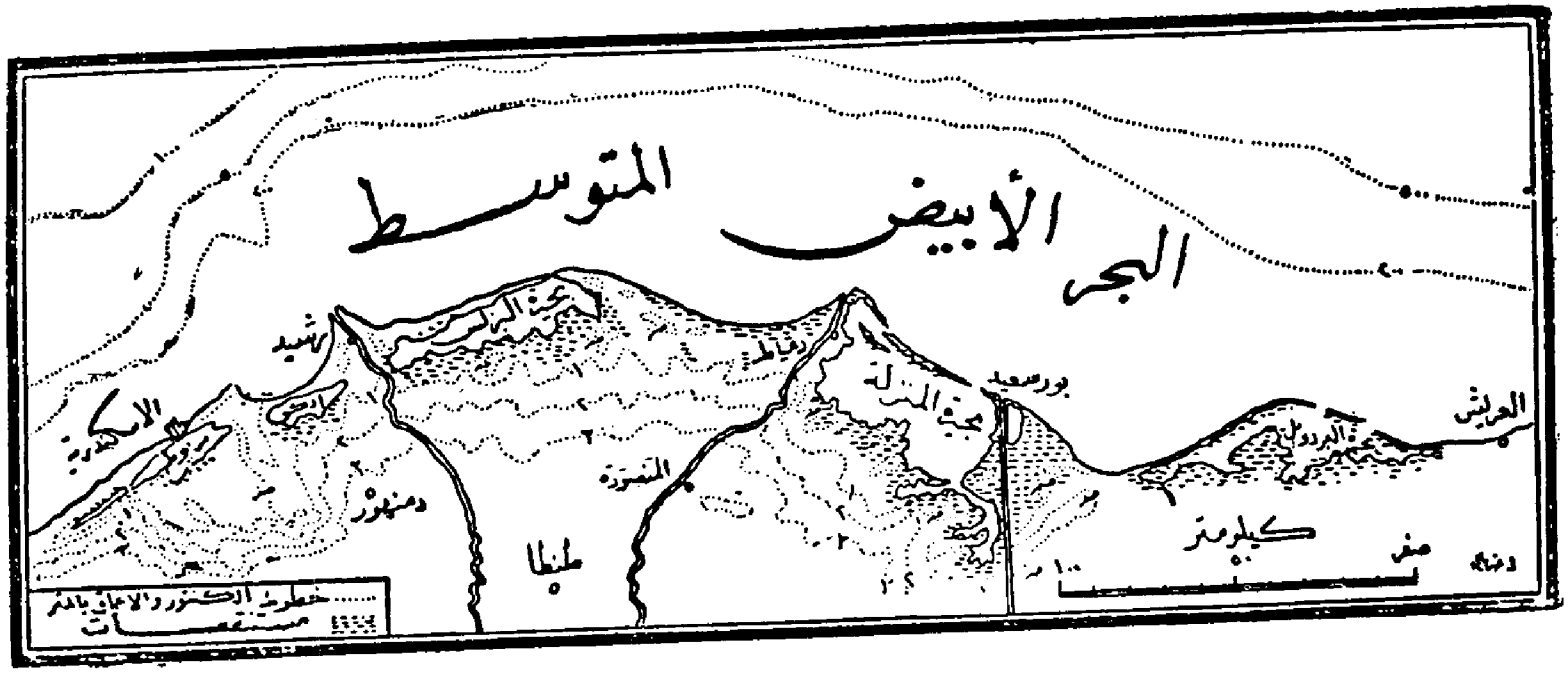
البحر الأبيض المتوسط
رشيد
بحيرة البرلس
دمياط
بحيرة المنزلة
بورسعيد
العريش
البرودل
الاسكندرية
دمنهور
المنصورة
طنطا
كيلومتر
خطوط الكنتور والارتفاع بالمتر
مستنقعات

الادوار التى مرت بالخليج :

ادت مصر فى اول عهدها بالاسلام جزية الى الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) كانت حبوبا وطعاما نقلتها السفن من العاصمة الى القلزم فى القناة التى حفرها عمرو بن العاص بامر الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وسماها خليج امير المؤمنين وربما مر فى القناة ايضا بعض من التجارة الشرقية العابرة وبعض من تجارة مصر الى جنوب شرق آسيا ولكن جريان السفن فى الخليج لم يدم طويلا(١)

لان الخليج اهمل بعد عهد عمر بن عبدالعزيز ، فغلب عليه الرمل وصار منتهاه عند ذنب بحيرة التمساح ، وقيل ان السفن التجارية كانت تمر بخليج امير المؤمنين الى ايام الخليفة العباسى ابى جعفر المنصور (٣) فامر بردمه حتى لاتحمل فيه الميرة الى ثوار المدينة العلويين ، فانتهى امره وحلت محله طريق القوافل امتدت احيانا الى ايلة على رأس خليج العقبة ومنها الى الحجاز (٣) ثم امر بحفره الحاكم بامر الله سنة ١٠٠٠م لتسير فيه السفن الصغيرة ولذلك كان يسمى بالخليج الحاكمى (٤) وكان متنزها لاهل القاهرة وضواحيها ، وكان على ضفتيه المبانى الجميلة ، وقد اصبح الآن من شوارع القاهرة العاصمة .

تفكير عمرو بن العاص فى حفر قناة السويس

قال بعض المؤرخين (١): «والمعروف ان عمرو بن العاص اراد حفر ترعة تذهب من الفرما الى السويس فمنعه عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) بحجة ان وجودها يفتح طريقا لمراكب الروم تتمكن به من تهديد مكة والمدينة ، فعدل عمرو بن العاص عن فكرة الترعة المستقيمة الى فكرة الترعة الواصلة بين النيل والبحر الاحمر ، فاحتفر المجرى الترابانى الذى كانت الايام قد طمرته) (٢)

واذا نحن تذكرنا موقف انجلترا فى القرن التاسع عشر الميلادى ومعارضتها فى شق قناة السويس خوفا على مكانتها فى الهند ، تبين لنا ان عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) كان له ابلغ العذر (٣) عن تخوفه من شق هذه القناة منذ الف وثلاثمائة سنة مضت تقريبا .

الهوامش

(١) د . عبدالفتاح محمد وهيبة : الجغرافية التاريخية بين النظرية والتطبيق : ص ٢٣٠ ـ ٢٣١

(١) د . عبدالفتاح محمد وهيبة : نفس المصدر السابق ص ٢٣٠ ـ ٢٣١

(٢) د . عبدالفتاح محمد وهيبة : نفس المصدر السابق ص ٢٥٧ .

(١) د . عبدالفتاح محمد وهيبة : نفس المصدر السابق ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ .

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية : ج ١٨ ص ١١٩ ـ ١٢٠ بتصرف واختصار .